العقيدة ( 1 )
المحاضرة السادسة
طرق القرآن في تقرير توحيد الألوهية
والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الأمثال له
1- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية :
ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية ، ويبين أنه لا خالق إلا الله ، وأن ذلك مستلزم أن لا يعبد إلا الله ، فيجعل الأول دليلا على الثاني ، إذ كانوا يسلمون الأول ، وينازعون في الثاني ، فيبين لهم سبحانه أنكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله ، وأنه هو الذي يأتي العباد بما ينفعهم ، ويدفع عنهم ما يضرهم ، لا شريك له في ذلك ، فلم تعبدون غيره ، وتجعلون معه آلهة أخرى ؟ كقوله تعالى : قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون الآيات ( النمل : 59 - 60 )
يقول الله تعالى في آخر كل آية : أإله مع الله أي أعله مع الله فعل هذا ؟ وهذا استفهام إنكار ، يتضمن نفي ذلك ، وهم كانوا مقرين بأنه لم يفعل ذلك غير الله ، فاحتج عليهم بذلك ، وليس المعنى استفهام : هل مع الله إله ؟ كما ظنه بعضهم ، لأن هذا المعنى لا يناسب سياق الكلام ، والقوم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى كما قال تعالى . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد ( الأنعام : 19 ) ، وكانوا يقولون : أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب ( ص : 5 ) . لكنهم ما كانوا يقولون : إن معه إلها جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا . بل هم مقرون بأن الله وحده فعل هذا ، وهكذا سائر الآيات .
وكذلك قوله تعالى : ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . وكذلك قوله في سورة الأنعام : ( البقرة : 21 ) قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به الأنعام : 46 ) . وأمثال ذلك .
2 – شهادة الله سبحانه على توحيد الألوهية :
شهد الله لنفسه بالوحدانية، وشهد له بذلك ملائكته وأولو العلم من خلقه، وهذه الشهادة تتضمن مراتب تؤدي إلى الأمر بعبادته وحده لا شريك، وأن ما سواه باطل.
شواهد التوحيد في الفاتحة وآية: (شهد الله أنه لا إله إلا هو)
مر بنا أن التوحيد نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب والقصد، وأن كلاً من النوعين قد بينه الله تعالى في كتابه، وبينته الرسل عليهم السلام حتى قامت الحجة وانقطعت المعذرة، وأن كلاً من النوعين ضروري وشرط في قبول العبادات، فمن لم يحقق هذين النوعين من التوحيد لم تقبل منه عباداته، وهذا هو السبب في أهمية هذا التوحيد الذي هو توحيد العقيدة وتوحيد العمل، ونقرأ الآن بقية الكلام على هذه الأنواع:قال المؤلف رحمه الله تعالى: [فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم فـ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الفاتحة:2] توحيد الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [الفاتحة:3] توحيد مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ [الفاتحة:4] توحيد إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ [الفاتحة:5] توحيد اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ [الفاتحة:6] توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ [الفاتحة:7] الذين فارقوا التوحيد.وكذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد وشهدت له به ملائكته وأنبياؤه ورسله، قال تعالى : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [آل عمران:18]
إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ [آل عمران:19] فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد والرد على جميع طوائف الضلال، فتضمنت أجلّ شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها، من أجلّ شاهد بأجلّ مشهود به].يقول: إن القرآن كله يدور حول تقرير التوحيد، كما تقدم أن الأوامر والنواهي في الأحكام تكميل للتوحيد أو أمر بالتوحيد، والقصص والوقائع فيها بيان حال أهل التوحيد ومن خالف التوحيد، فالله يذكر قصة المكذبين بالتوحيد وكيف أهلكهم، وقصة الرسل ومن نجا معهم؛ لأنهم من أهل التوحيد، وكذلك ذكر الثواب لأهل التوحيد، والعقاب لمن خالف التوحيد، فيقول: إن سورة الفاتحة تتضمن التوحيد، ففي كل آية منها توحيد.فالآية الأولى فيها الحمد، أي: أنه المستحق للحمد وحده، فهو توحيد، لأنه تخصيص للحمد بمن يستحقه.
بيان الله لتلك الشهادة
[والحكم والقضاء بأنه: لا إله إلا هو متضمن الإلزام، ولو كان المراد مجرد شهادة لم يتمكنوا من العلم بها، ولم ينتفعوا بها، ولم تقم عليهم بها الحجة، بل قد تضمنت البيان للعباد ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به، كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ولم يبينها بل كتمها، لم ينتفع بها أحد، ولم تقم بها حجة.وإذا كان لا ينتفع بها إلا ببيانها فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة: السمع والبصر والعقل].
السمع :

أما السمع: فبسمع آياته المتلوة المبينة لما عرفنا إياه من صفات كماله كلها الوحدانية وغيرها، غاية البيان، وكذلك السنة تأتي مبينة أو مقررة لما دل عليه القرآن، لم يحوجنا ربنا سبحانه وتعالى إلى رأي فلان، ولا إلى ذوق فلان، ووجده في أصول ديننا؛

البصر:

وأما آياته العيانية الخلقية ، فالنظر فيها والاستدلال بها يدل على ما تدل عليه آياته القولية السمعية .

العقل :

والعقل يجمع بين هذه وهذه ، ويجزم بصحة ما جاءت به الرسل ، فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة .

الاستدلال بأسماء الله وصفاته على توحيد الألوهية

فقال تعالى سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أي القرآن ، فإنه هو المتقدم في قوله : قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به ثم قال : أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد فشهد سبحانه لرسوله بقوله : أن ما جاء به حق ، ووعده أن يري [ ص: 433 ] العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك أيضا ، ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل ، وهو شهادته سبحانه على كل شيء ، فإن من أسمائه الشهيد الذي لا يغيب عنه شيء ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له ، عليم بتفاصيله ، وهذا استدلال بأسمائه وصفاته ، والأول استدلال بقوله وكلماته ، والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته .

فإن قلت : قد فهمت الاستدلال بكلماته والاستدلال بمخلوقاته ، فبين لي كيفية الاستدلال بأسمائه وصفاته ، فإن ذلك أمر لا عهد لنا به في تخاطبنا وكتبنا .

قلت : أجل ! هو لعمر الله كما ذكرت ، وشأنه أجل وأعلى ، فإن الرب تعالى هو المدلول عليه ، وآياته هي الدليل والبرهان .

فاعلم أن الله سبحانه في الحقيقة هو الدال على نفسه بآياته ، فهو الدليل لعباده في الحقيقة بما نصبه لهم من الدلالات والآيات ، وقد أودع في الفطر التي لم تتنجس بالتعطيل والجحود : أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته ، وأنه الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل عيب ونقص ، فالكمال كله ، والجمال والجلال والبهاء ، والعزة والعظمة والكبرياء : كله من لوازم ذاته ، يستحيل أن يكون على غير ذلك ، فالحياة كلها له ، والعلم كله له ، والقدرة كلها له ، والسمع والبصر والإرادة ، والمشيئة والرحمة والغنى ، والجود والإحسان والبر ، كله خاص له قائم به ، وما خفي على الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه منه ، بل لا نسبة لما عرفوه من ذلك إلى ما لم يعرفوه .

ومن كماله المقدس : اطلاعه على كل شيء ، وشهادته عليه ، بحيث لا يغيب عنه وجه من وجوه تفاصيله ، ولا ذرة من ذراته ، باطنا وظاهرا ، ومن هذا شأنه : كيف يليق بالعباد أن يشركوا به ، وأن يعبدوا معه غيره ؟ وأن يجعلوا معه إلها آخر ؟ وكيف يليق بكماله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب ، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه ، ثم ينصره على ذلك ويؤيده ، ويعلي كلمته ، ويرفع شأنه ، ويجيب دعوته ، ويهلك عدوه ، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين والأدلة ما تعجز عن مثله قوى البشر ، وهو - مع ذلك - كاذب عليه مفتر ، ساع في الأرض بالفساد ؟ ؟

ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شيء ، وقدرته على كل شيء ، وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك كل الإباء ، ومن ظن ذلك به ، وجوزه عليه ؛ فهو من أبعد الخلق من معرفته ، وإن عرف منه بعض صفاته ، كصفة القدرة وصفة المشيئة .

والقرآن مملوء من هذه الطريق ، وهي طريق الخاصة ، بل خاصة الخاصة هم [ ص: 434 ] الذين يستدلون بالله على أفعاله ، وما يليق به أن يفعله وما لا يفعله .

وإذا تدبرت القرآن رأيته ينادي على ذلك ، فيبديه ويعيده لمن له فهم وقلب واع عن الله ، قال الله تعالى : ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزينأفلا تراه كيف يخبر سبحانه : أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يقر من تقول عليه بعض الأقاويل ؟ بل لابد أن يجعله عبرة لعباده ، كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه ، وقال تعالى : أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك هاهنا انتهى جواب الشرط ، ثم أخبر خبرا جازما غير معلق : أنه يمح الله الباطل ويحق الحق وقال تعالى : وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء فأخبر أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يقدره حق قدره ، ولا عرفه كما ينبغي ، ولا عظمه كما يستحق ، فكيف من ظن أنه ينصر الكاذب المفتري عليه ويؤيده ؟ ويظهر على يديه الآيات والأدلة ؟ وهذا في القرآن كثير جدا ، يستدل بكماله المقدس ، وأوصافه وجلاله على صدق رسله ، وعلى وعده ووعيده ، ويدعو عباده إلى ذلك ، كما يستدل بأسمائه وصفاته على وحدانيته ، وعلى بطلان الشرك ، كما في قوله : هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، وأضعاف أضعاف ذلك في القرآن

‘‘‘
بتوفيق للجميع
khaled